

## الفصل الثالث

### جوانب ضياء الدين

#### ١ - ضياء الدين المؤلف

نستطيع أن نقسم كتب ضياء الدين إلى ثلاثة أقسام هي : قسم المختارات والبلاغة وصناعة الإنشاء ، والمعارف العامة .

ويندرج تحت القسم الأول مجموعة من كتب المختارات في الحديث والشعر والأمثال . وقد أشرنا منذ قليل إلى كتابه من مختارات الأحاديث ، ولم يصلنا شيء عن هذا الكتاب وربما لم يهتم ضياء الدين بعرضه على الناس ، أو ربما ضاع بين ما ضاع من مؤلفاته .

وله كتاب مختصر جرد فيه أمثال الميداني . قال في المثل السائر : « وكنت جردت كتاب الأمثال للميداني أوراقاً خفيفة نشتمل على الحسن من الأمثال الذي يدخل في باب الاستعمال » .

ومن مختاراته الشعرية مجموعة من مختار شعر أبي تمام والبحرئى ودبك الجن والنتبي في مجلد واحد كبير . قال ابن خلكان : « وحفظه مفيد »<sup>(١)</sup> . وقال عنه ابن المستوفي : نقلت عنه من خطه في آخر هذا الكتاب :

تمتع به علقاً نفيساً فإنه الخ تيارٌ بصير بالأمرِ حكيم  
أطاعته أنواع البلاغة فاغتندى إلى الشعر من نهجٍ إليه قويم  
لم يصلنا هذا الكتاب فيما وصل من كتبه .

وهناك كتاب ثالث وصلنا ، ولكن يشك في نسبه إليه وهو « مؤنس الوحدة »

(١) رفيات الأعيان ٢٨/٥ .

مجموع يحوى طائفة من جيد الشعر لجماعة من الشعراء المعروفين كالبحتري وابن الرومي وأبي تمام وآخرين من شعراء القرنين الخامس والسادس ، ومرتب حسب الموضوعات فيبدأ بالمديح ثم الهجاء ، وقد جاء فيه بكثير من شعر ابن الرومي . . . ثم موضوعات الشعر الأخرى ، ووجه النظر أثناء عرضه لمقطوعات الشعر أو أبياته المختارة إلى ما فيها من المعاني والتشبيهات . وتدل على ذوق حسن في فهم الشعر ومنه نسخة خطية بدار الكتب المصرية مصورة عن الأصل المحفوظ بمكتبة كوبريللي من مخطوطات القرن السابع ، وعلى الصفحة الأولى أنه لابن الأثير ، ولم يعينه ونسب في فهرس دار الكتب إلى ضياء الدين ، ويبدو أن في الأمر لبساً ويغلب أنه لعماد الدين بن الأثير الحلبي (توفى سنة ٦٩٩ هـ) المتأخر عن ضياء الدين<sup>(١)</sup> .

#### تحفة العجائب :

وكتاب آخر ينسب إليه ولم تثبت صحة النسبة ، واسمه «تحفة العجائب وطرفة العرائب» لم يشر إليه أحد ممن تعرض له بالترجمة ، وهو مجموعة من الشعر والنثر في مشاهد الكون المختلفة من سماء ونجوم وشمس وقمر وماء ونهر وشجر ، ويقع في جزأين كبيرين ، وهو من المجموعات الطريفة في موضوعها خاصة وأنه سبق التويرى .

ومنه نسخة أصلية بمكتبة كوبريللي مديانة بأنها تمت كتابة في اليوم العاشر من شهر جمادى الأولى سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة (٧٨٢ هـ) . وهي منسوبة لضياء الدين . وكذلك ينسبها صاحب كشف الظنون إليه<sup>(٢)</sup> . وتولى ناشر الكتاب تصحيحها ونسبها لأخيه عز الدين . وذكر كوركيس عواد أن هناك نسخة من الكتاب بجامعة برنستون بالولايات المتحدة منسوبة إلى عماد الدين بن الأثير الحلبي

(١) راجع ضياء الدين بن الأثير وجهوده للمؤلف ص ٦٧ .

(٢) كشف الظنون لحامى خليفة ١/٣٦٩ ط ١٩٤١ .

السابق وصاحب كثر البراعة<sup>(١)</sup>. وذكر جورجى زيدان أن نسخة منه موجودة بالمكتبة العثمانية بحلب .

وله مجموع فى معانى الشعر أشار إليه فى كتاب الاستلراك وسماه «عمود المعانى» قال : « وقد ألقت فى ذلك كتاباً وسميته عمود المعانى ، وجعلته مقصوراً على ضروب المعانى الموجودة فى النظم والنثر وما فيها من الأعمدة المطروقة ، وما يخرج عنها من الشعب . وهذا كتاب تعبت فى تأليفه زماناً طويلاً ، وأنا ضنين به<sup>(٢)</sup> .

وأما كتبه فى البلاغة فأشهرها كتابه المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر وهو أكبرها . ويغلب على الظن أنه آخر ما ألف من الكتب ، أو ربما سبق كتاب الاستلراك ، ولكنه ألفه على أية حال فى العشرين عاماً الأخيرة من عمره وليس بعد ذلك على الأرجح ، وظل يدرسه بالموصل ، ويعيد فيه ويزيد أو ينقص حسب ما يترأى له . ونقول إنه انتهى من تأليفه قبل وفاته بأكثر من خمس عشرة سنة ، لأننا نجد نسخة منه قديمة بدار الكتب المصرية فرغ كتابه منه فى يوم السبت الحادى والعشرين من شهر جمادى الأولى سنة ٦٢٢ هـ وفى أوله إجازة بخط المؤلف كتبها بالموصل فى شهر شعبان سنة ٦٢٢ هـ أجاز بها الشيخ عضد الدين أبا محمد مظفر بن محمد بن على بن جعفر الدمشقى .

ويقوم موضوع الكتاب على أساس علم البلاغة بكل أبوابه ، وما يتصل منها بالنثر أو الشعر جميعاً بالإضافة إلى مجموعة من النصائح والإرشادات الموجهة إلى الشعراء والكاتب فى أصول الصناعة . وبنى الكتاب على مقدمة وقسمين كبيرين أحدهما خاص بالألفاظ أو الصنعة اللفظية والثانى بالصنعة المعنوية .

وتناول فى المقدمة أصول صناعتى الشعر والكتابة . واهتم بالكتابة أكثر من اهتمامه بالشعر ونصح الكتاب نصائح لإجادة الصنعة فيها ، وأول ما ينصح به

(١) المخطوطات العربية فى دور الكتب الأمريكية ص ٣٣ ط الرابطة ببغداد سنة ١٩٥١ .

(٢) الاستلراك . المقدمة .

الكاتب أن يكون له طبع وميل للكتابة ، وأن يتعلم العربية ، والنحو ، وأصول اللغة ، ويحفظ أمثال العرب وأشعارهم القديمة والحديثة ، ويحفظ القرآن ويتدرب على استعماله ، والحديث والأخبار النبوية ، ومعرفة الأحكام السلطانية والتاريخ وأيام العرب وأخبارهم والاطلاع على تأليفات من تقدم من المنظوم والمنثور ، ومعرفة العروض والقوافي .

ثم يتحدث في المقالة اللفظية عن خصائص الألفاظ مفردة ، ويجمعها في سهولة النطق ، والبعد عن الغرابة والحوشية والابتذال ، مع حسن وقعها في السمع ، وأن يقبلها الذوق ولا يفر منها الطبع وتكون جارية على قواعد اللغة وأصولها في البناء والإعراب .

وأما خصائص اللفظ المركب فأكثرها شبيه باللفظ المفرد ، وفصاحة المركب متصلة كذلك بحسن التأليف وهو أن لا يثقل على اللسان النطق به فيصير متعسراً في النطق أو ثقيلاً على السمع لتعاقب الأفعال مثلاً ، وأن يكون في تأليفه قريباً من المألوف غير شاذ كالتركيب في الضمائر وتعاقب حروف الجر وما إليها . ويجعل من أبواب الألفاظ المؤلفة مما اعتاده الناس من أبواب البديع والبلاغة السجع في المنثور ، والتصريح في المنظوم ، والتجنيس ، والترصيع وأزوم مالا يلزم ، والموازنة في المنثور .

والتقسيم الثاني الخاص بالمعاني يتحدث فيه عن أبواب المعاني المعروفة في علم البلاغة أو معاني القول أي المعاني الإجمالية والجزئية كمعاني الغزل ، ومعاني المدح وما إليها والمعاني القسم الخاص والمصطلح البلاغي الذي يندرج تحته أبواب التقديم والتأخير والالتفات والإيجاز والإطناب والاستعارة والتشبيه والكناية وما إليها .

ثم يختم الكتاب بالكلام في السرقات باعتبار أن السرقات ضرب من المآخذ المعنوية ، وتصرف الشعراء في المعاني المختلفة والمشاركة .

وفي موضوع المثل السائر نجد كتاباً آخر منسوباً لابن الأثير هو « الجامع

الكبير في صناعتى المنظوم والمثور» وينسب هذا الكتاب في كل المراجع تقريباً إلى ابن الأثير الجزرى ، ومع ذلك فلم يذكره أحد من تعرض لترجمته من كتبه فلم يشر إليه ابن خلكان ولا صاحب مرآة الزمان ، ولا مرآة الجنان ، وقال عنه الفلقشندي وقد عدد أهم الكتب في علم البيان : « من الكتب المنفردة به كتاب نهاية الإيجاز للإمام فخر الدين الرازى ، والجامع الكبير لابن الأثير الجزرى<sup>(١)</sup> » بينما ينسبه السبكي في عروس الأفراح لأخيه عز الدين<sup>(٢)</sup> ، وكذلك جاراها حاجى خليفة في كشف الظنون<sup>(٣)</sup>.

وقد رأينا أنه ربما كان الكتاب لضياء الدين<sup>(٤)</sup> ، ولكننا نعود ففرجح أنه لعز الدين وليس اشتراك الكتابين « المثل السائر » و « الجامع الكبير » في المنهج وفي بعض العبارات بدليل يكفى للتدليل على أن صاحب الكتابين واحد ، بل نرى إن بهما ما يدل على أن المؤلف فيهما مختلف ، ففي المثل السائر تبدو شخصية ضياء الدين في اعتداده بنفسه وأدبه وكثرة استشهاده برسائله ، وسخريته بغيره من العلماء ، ونرى روح مؤلف الجامع الكبير مختلفة تماماً ، فهو لا يستشهد بكتاباتة إلا قليلاً . وهو أكثر تحديداً لضروب البيان والبديع وأبوابهما بصورة تقرب من مناهج معاصريه ، على خلاف المثل السائر الذى يحفل بالتحليل وينحى عديداً من صور البديع ويثور عليها كثيراً .

والكتاب الثانى الذى ثبت لضياء الدين ، وانضحت فيه ملامح شخصيته هو كتاب « الاستدراك على المآخذ الكندية » وهو فى السرقات أو المعانى المشتركة بين الشعراء ، وجعله استدراكاً على كتاب « المآخذ الكندية من المعانى الطائية » أو سرقات المنتهى من أبى تمام لابن الدهان .

وثبت الكتاب لضياء الدين دون غيره من أبناء الأثير إخوته أو من بعدهم

(١) صبح الأعشى ١/٤٦٨ .

(٢) عروس الأفراح ١/٣٠ ، ٩١ .

(٣) كشف الظنون ١/٥٧١ .

(٤) راجع ضياء الدين بن الأثير وجهوده فى النقد ص ٦٩ .

واضح فقد أشار في المثل السائر إلى أنه ألف مقالا<sup>١</sup> أورد فيه كلاماً عن السرقات والمعاني فقال : « ولى في هذا مقالة مفردة ضمنتها الحكم على المعنيين المختلفين ، وتكلمت فيه كلاماً طويلاً عريضاً ، وأقمت الدليل على ما نصصت عليه وما معنى من إيرادها في كتابي هذا إلا أنها سنحت لى بعد تصنيفه وشياعه في أيدي الناس ، وتناقل النساخ له (١) » .

كذلك أشار في الاستدراك إلى المثل السائر قائلاً : « ولو أخذت في استقصائه لا تسع المجال ، ولكنه يوجد في كتابي الموسوم بالمثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، فإنه موضوع لبيان أسرار الألفاظ وتفصيل أقسامها (٢) » .  
وأهم ما في الكتاب مقدمته الطويلة في المعاني المشتركة والمآخذ بين الشعراء ويبدو منها انتصاره للمتنبي وتقديمه له ولشعره وتفضيله اتجاهه واتجاه أبي تمام وأمثالهما من شعراء الحكمة وأصحاب المعاني العقلية والتجارب المستمدة من الحياة على الشعراء الوصافين المصورين كامرئ القيس وأبي نواس في بعض شعره .

ثم يظهر في الكتاب ميله إلى عدم الارتكان إلى تحكيم اللغويين وأصحاب القواعد والأصول في معاني الشعر أو المبالاة بأرائهم في جودة الشعر . أو شرحه وفهمه ، فإن منهم من لم يحسن فهم الشعر ولا تذوقه لاقتصاره منه على تتبع غريبه ، وما يحتاج من لفظه إلى بيان أو تفسير . أو ربما اهتم عالم النحو بإعرابه وتوجيه بعض الألفاظ . وهذا عنده لا يجدى في صنعة الشعر فتيلاً .

وحاول في هذا الكتاب أن يستدرك على ابن الدهان باعتباره عالماً لغوياً ونحوياً مشهوراً في بلده وعصره ، مبيّناً نظريته التي قال بها وهي أن معرفة اللغة والإمام بقواعد النحو شيء والمعرفة بأسرار علم البيان وحسن تذوق الشعر شيء آخر .  
وبعد هذه المقدمة الطويلة التي يعرض فيها لجوانب مختلفة من أصول نقد

(١) المثل السائر ٢/٤٠٩ .

(٢) الاستدراك نسخة الخالدية ورقة ١٧ .

الشعر مع بيان مذهبه في ذلك يأتي الكتاب أو صلب الكتاب وهو استدراكاته على ابن الدهان فيما نسبته إلى المتنبي من سرقات من أبي تمام مبيّناً أن بعض ما اتهمه فيه بالسرقة ليس كذلك لأنه مأخوذ من معاني القدماء أو مثله في ذلك مثل أبي تمام فكلاهما وارد على ما ورد عليه صاحبه ، كما بين في استدراكاته خطأ ابن الدهان أحياناً في نسبة بعض الشعر إلى المتنبي أو إلى أبي تمام وليس لكليهما أو أنه اتهم المتنبي بالسرقة في بعض المعاني ولا يمكن أن تعد كذلك لبعدهما بينهما أو لعدم وجود صلة واضحة بين المعنيين ، وهكذا متبعاً في ذلك ما اتبعه ابن الدهان من تناول ديوان المتنبي حسب ترتيب القوافي .

وأما القسم الثالث من كتبه وهو الخاص بصناعة الإنشاء فنستطيع أن ندرج فيه كتابين أحدهما « الوشئ المرقوم في حل المنظوم » و « المعاني المخترعة في صناعة الإنشاء » .

أما الكتاب الأول فقد طبع منذ زمن ، وهو صغير الحجم ويتعرض لجانب من جوانب الصناعة ، وهو حل الشعر ، أي نثره في أسلوب جميل مناسب ، ويعرض نماذج لذلك من صناعته .

والكتاب الثاني ورد بهذا الاسم في كل من نقل ترجمته ابتداء من ابن خلكان ولكن ما عثرنا عليه كتاب منسوب إليه ويحمل اسماً آخر هو « مفتاح المنشأ في صناعة الإنشاء » . وقد نسبته إليه بروكلمان بين كثير مما ليس له من كتب أخيه أو عماد الدين بن الأثير . والصحيح أن الكتاب ليس له فهذا الكتاب يبحث في أوليات الكتابة ، وطريقة عمل الرسالة ، وأساليب الكتاب مخالفاً إلى حد كبير لأسلوبه في المثل السائر والاستدراك ويغلب على الظن أنه لعماد الدين صاحب كنز البلاغة أو لابنه ، وإن كنت لا أقطع بذلك فهناك مجال كبير لإثبات الكتاب لصاحبه الحقيقي يمكن البحث فيه .

وبالإضافة إلى هذه الكتب فإن له ديوان رسائل كبير قال ابن خلكان وغيره إنه في عدة أجزاء والمختار منه في مجلد .

## ٢ - ضياء الدين الكاتب المترسل

عمل ضياء الدين بكتابة الرسائل منذ شبابه المبكر ، فقد التحق بالأفضل بن صلاح الدين وكتب لصالح الدين ثم للأفضل ثم لأصحاب الموصل . وظل على ذلك إلى أن توفى .

وقال عنه الياقعي في مرآة الجنان<sup>(١)</sup> : « وقال ابن خلكان ، ولابن الأثير المذكور كل معنى بليغ في الترسل ، وكان يعارض القاضي الفاضل في رسائله ، فإذا أنشأ رسالة أنشأ مثلها ، وكانت بينهما مكاتبات ومجاوبات ، ولم يكن له في النظم شيء حسن » .

وعاب عليه ابن خلكان مبالغته أحياناً في بعض معانيه للدرجة قد تصل إلى تكفير صاحب المقال .

وقد استشهد بكثير مما كتب في المثل السائر والوشى المرقوم ، وآخذه ابن أبي الحديد في الفلك الدائر على ذلك . قال : « وضرب كلامه أمثلة أكثرها جيد ، وفيها ما ليس بجيد مثل قوله ( فسرنا في غمامة من الكتاب ، تظللها غمامة من الطيور الأشائب ، فهذه يضمها بحر من حديد ، وهذه بحر من صعيد ) ، وذلك لأن الصعيد وجه الأرض ، والطيور التي تظل الجيش إنما يضمها بحر من الجو والهواء لا من الأرض »<sup>(٢)</sup> . إلا أنه مع ذلك يعجب بطريقته في حل المنظوم ويعتبر أنه أقام صناعته على هذا الفن أي حل الشعر .

قال ابن أبي الحديد : « واعلم أن هذا الباب وهو حل المنظوم هو عين هذا الكتاب وخلاصته ، ووجه جملة ، وطراز حلته ، وكأنه لم يصنفه إلا لأجله وليظهر صناعته فيه ، وعلى أن كتابته كلها إذا تأملها العارف بهذا الفن وجدها من هذا

(١) مرآة الجنان ٩٩/٤

(٢) الفلك الدائر ٤٤ .

الباب ، لأنها إما محلول منظوم أو ترصيع آية أو خبر أو مثل أو واقعة وهذه إحدى طرائق الكتاب عندى وإليها أذهب ولها أستعمل .

وتقول إن هذا الذى قاله ابن الحديد ليشرح أهم خصائص كتابة ضياء الدين فقد اعترف فى أول المثل السائر بأنه قد حفظ القرآن وكثيراً من الحديث والسنة النبوية والأخبار والشعر وما إلى ذلك واستخدمها فى كتابته عن طريق الحل والاقتراس والتضمين والاستعانة بالألفاظ والمعانى ، أو المجازة فى النسق وطريقة التأليف وما إلى ذلك .

ولكنه مال أيضاً إلى طريقة العصر فى أن عمد إلى أسلوب السجع ، ولم يكن يميل فى سجمه إلى الفقرات القصار ، كذلك لم يكن يستخدم السجع الطويل الفقرات بل كان يراوح بين فقراته طولاً وقصراً . وعد هذا أحسن وأدعى إلى طول نفس الكاتب وأتم لإظهار معانيه واستيعاب ألفاظه لها .

وتأثر بالقاضى الفاضل فى كثير من خصائص فن الكتابة : ونعلم أن الفاضل استغل الاستعارة والتشبيه أتم استغلال كما استخدم التضمين والاقتراس من القرآن الكريم والشعر القديم أجمل استخدام . كذلك أشاع التورية فى كتابته حتى عدت من دعائمها كما يقول ابن حجة الحموى ، ومن ثم كانت من خصائص المدرسة المصرية فى الكتابة .

وكان الفاضل نفوراً من السجع المتكرر المتكلف ، وكذلك كان ضياء الدين ولم يكن ميالاً إلى تكرار الكلام فى السجع أى تكرار المعنى الواحد فى فقرتين متاليتين وعد ذلك عيباً فى الصناعة وعيباً .

ولكنه بالرغم من هذا كله كان يفتقر إلى حد كبير فى كتابة الرسائل إلى الرشاقة وخفة الظل التى اتسمت بها رسائل القاضى الفاضل وإن لم تسرف فى النقل إسراف رسائل العماد الأصبهانى . وأسلوبه المرسل فى المثل السائل والاستدراك أجمل من أسلوب رسائله المتكلف .

### ٣ - ضياء الدين الناقد

تعود نقاد العرب تناول بعض الموضوعات في العمل الأدبي والأديب وما يحيط بها تفصيلاً ، وإغفال بعضها الآخر ، أو تناولها تناولاً هيناً أو عارضاً . وإذا كنا نتصور النقد تفسيراً للأدب ، ومحاولة لتذوقه والحكم عليه أو وضعه موضعه اللائق فإن الوصول إلى ذلك يمكن السلوك إليه وفقاً لمناهج النقد المعاصرة بعدة طرق منها : التعرض للنص نفسه واكتشافه ، عن طريق دراسة جوانبه المختلفة ، جوانب الأسلوب ، والموضوع ، والغاية وما يمكن أن نستدل عليه أو نستشفه من شخصية صاحبه ونفسيته وما إلى ذلك ، ومدى ما يمكن التوصل إليه من صدق فني أو كذب .

ثم قد نعرض لجوانب خارجة على النص أثرت فيه ، فنعرض الأديب نفسه وما يتصل بمكوناته الأدبية ، من موهبة ، وما ألهمه للعمل الأدبي ، وإمكانياته الفنية ، أو قدرته ، وقد يحتاج الأمر لعرض وضعه الاجتماعي ومكانته أو بيئته التاريخية أو الزمنية .

ولا نتوقع أن يلم القدماء من نقادنا بكل هذه الجوانب ، ولكننا مع ذلك لا نقول لأنهم تجاهلوا تماماً أو غفلوا عنها فلم يدرسوها ، أو لم يتوصلوا إلى علاقتها بالنص الأدبي وصاحبه .

وفي عرضنا لضياء الدين الناقد ندرج في حديثه عن جوانب مختلفة من قضايا النقد العديدة التي تتعرض لتلك الأمور من زوايا قريبة أو بعيدة .

كلامه عن المؤلف شاعراً وكاتباً وأثر تكوينه في عمله :

ويحدثنا ضياء الدين عن المؤلف في أول حديثه عن آليات الكتابة والنظم ، فيرى أن من هذه الآليات الطبع أو الاستعداد الفطري ، وعن طريق هذا الطبع يهتدى الشاعر والكاتب إلى البديع المخترع من المعاني : « إن المعاني المخترعة

لم يتكلم فيها أحد بالإشارة إلى طريق يسلك فيها : لأن ذلك مما لا يمكن . ومن هاهنا أضرب علماء البيان عنه ، ولم يتكلموا فيه كما تكلموا في غيره ، وكيف تنقيد المعاني المحترقة بقيد أو يفتح إليها طريق يسلك وهى تأتي من فيض إلى بغير تعاليم ، ولهذا اختص بها بعض الناثرين والناظمين دون بعض ، والذي يختص بها يكون فذاً واحداً يوجد في الزمان المتناول (١) .

ويشبه الموهبة الكامنة لدى الشاعر الموهوب أو الكاتب المبدع بالنار الكامنة في حجر الزناد تظهر وتتطاير بالاحتكاك والقدح . وأنه لا يجدى التحصيل والمعرفة بآلات الكتابة والشعر من حفظ أو تمرس بصناعتها دون الموهبة : « فإنه إذا لم يكن ثمَّ طبع فإنه لا تعنى تلك الأدوات شيئاً » ، ومثل ذلك مثل النار الكامنة في الزناد والحديده التي يقدح بها ، ألا ترى أنه إذا لم يكن في الزناد نار لا تفيد تلك الحديده شيئاً (٢) .

وبتفاوت درجة الموهبة لدى الأديب تتفاوت درجات ما يصدر عنه من الأدب فالأديب المطبوع تحس في أدبه روح الابتكار والصدق ، وغير المطبوع الذي ليست له موهبة تلمس في أدبه روح التكلف وأثر الصنعة . وتتراوح درجات الطبع والصنعة تبعاً لدرجات الموهبة والمعرفة لدى الشاعر ، والشاعر المطبوع العارف العالم يأتي شعره في الدرجة العليا وضربوا المثل في ذلك بأبي تمام والمنتجبى . وقد أعجب بهما ابن الأثير وضرب المثل بأشعارهما وقارن بين شعر أبي تمام وشعر أبي العلاء المعرى فقال إن حسن هذا مطبوع وحسن ذلك مصنوع . ثم يشرح علة انتهاءه لأبي العلاء وشعره في اللزوميات بالتكلف والصنعة : فقال : لا شك أن صورة الخلقه غير صورة التخلق . فإن قيل ما الفرق بين المتكلف من هذه الأنواع وغير المتكاف قامت في الجواب : أما المتكلف فهو الذى يأتي بالفكرة والروية ، وذلك يضنى الخاطر في طلبه ، ويبعث على تتبعه واقتصاص أثره ، وغير المتكلف يأتي مستريحاً من هذا

(١) المثل السائر ١/٢٤٥ .

(٢) المثل السائر ١/٧ .

كله ، وهو أن يكون الشاعر في نظم قصيدته أو الخطيب أو الكاتب في إنشاء خطبته أو كتابته ، فبينا هو كذلك ، إذ سنع له نوع من هذه الأنواع بالاتفاق لا بالسعي والطلب .

فالقول المطبوع كالحسن المطبوع يكون خلقه ، ومن صنع الفطرة ، وهو مقبول يقع في القلب ، ولا يدعو إلى التقصي والتعب في التبع .

وللمعرفة شأنها مع الطبع لأنها تقويه وتغنيه ، وتطيل من تدفقه وحيويته فالاطلاع على الأدب القديم والحديث ، وحفظ مختاره والتدرب على تقليده أمر لازم فإن في ذلك نوائد جمة لأن الشاعر أو الكاتب يعلم منه أغراض الناس ونتائج أفكارهم ، ويعرف به مقاصد كل فريق منهم ، وإلى أين ترامت به صنعته في ذلك فإن هذه الأشياء مما يشهد القرينة ويدكي الفطنة . وإذا كان صاحب هذه الصناعة عارفاً بها تصير المعاني التي ذكر ، وتعب في استخراجها كالشيء الملقى بين يديه يأخذ منه ما أراد ويترك ما أراد ، وأيضاً فإنه إذا كان مطلعاً على المعاني المسبوق إليها قد يتفدح له من بينها معنى غريب لم يسبق إليه . ومن المعامول أن خواطر الناس وإن كانت متفاوتة في الجودة والرداءة فإن بعضها : « يكون عالياً على بعض أو منحطاً عنه إلا بشيء يسير ، وكثيراً ما تتساوى القرائح ، والأفكار في الإتيان بالمعاني حتى إن بعض الناس قد يأتي بمعنى موضوع بلفظ ، ثم يأتي الآخر بعده بذلك المعنى واللفظ بعينهما من غير علم منه بما جاء به الأول (١) » .

النص الأدبي :

وأما كلامه عن النص الأدبي فقد استغرق كل آرائه النقدية كغيره من علماء البلاغة . فتكلم عن الصياغة من جوانبها المختلفة ، الألفاظ المفردة ، وما ينبغى أن يتوفر لها من الفصاحة التي لها شروط ، ومن حيث التأليف وتركيبها بعضها إلى جانب بعض ، ثم من حيث المعاني ، ودلالة التأليف على المعاني المختلفة دلالات

تفاوت بأوضاع التأليف وأشكاله وبالقدرة على تخيل المعاني وتصويرها ليستجيب لها الإدراك وتثبت في الذهن أو تؤثر في المشاعر بأحاسيس مما يتطلبها الموقف .

ولم يتعرض ضياء الدين لمراحل الخلق الأولى للعمل الأدبي كما حاول ابن طباطبا في عيار الشعر . ولكنه حاول الفصل بين المعنى واللفظ ، وليس يقصد بالمعنى « المدلول » اللفظي المحدود ، ولا معنى اللفظ الميمرد وإنما يقصد معنى العبارة أو المعنى البلاغي في الجملة .

ويرى أن الشاعر إذا قال شعراً ، فينبغي له أن يعيد النظر فيه لعله يترأى له أن يتقفه أو يعدل أو يبدل حتى يستقيم كما ينبغي ، فكأنه ارتأى أن لا يكتفى الشاعر بالتعبير الأولى أو التعبير الشعري ، بل يجب التعديل أو محاولة الوصول للمرحلة الثانية وهي التعبير البلاغي بإدخال الصنعة والزخرف اللفظي والموازنة والتناسب بين المعاني ، وما إلى ذلك . ويرى جماعة أن أى تعديل في الصيغة إنما يعنى تعديلاً في المعنى .

ويدافع ضياء الدين عن الخصائص المنفصلة أو المستقلة لكل من الألفاظ والمعاني والتي يمكن أخذها بعين الاعتبار ، أو مراعاتها في عمل الشعر والكتابة فيقول « وإن القول بتلاؤم اللفظ والمعنى وعدم إمكان الفصل بينهما قول شبيه بالسفسطة ، وهو باطل من وجهين أحدهما أن المعاني إذا كانت لا تزيد عن الألفاظ فيلزم من ذلك أن الألفاظ لا تزيد أيضاً على المعاني لأنهما متلازمان على قياس من يقول بعدم الانفصال ، ونحن نرى معنى قد دل عليه بألفاظ ، فإذا أسقط من تلك الألفاظ شيء لا ينتص ذلك المعنى بل يبقى على حاله ، والوجه الآخر أن الإيجاز بالحذف أقوى دليل على زيادة المعاني على الألفاظ لأننا نرى لفظاً يدل على معنى لم يتضمنه وفهم ذلك المعنى ضرورة لا بد منه ، فعلمنا حينئذ أن ذلك المعنى الزائد على اللفظ مفهوم من دلالة عليه (١) » .

ولذلك فقد عرض بجملة من الخصائص التي تتوفر في اللفظة المفردة لتكون

فصيحة . وافق فيها كثيراً مما ذكره ابن سنان الخفاجي في سر الفصاحة من قبل ،  
وخالفه في بعض مسائل جزئية .

فما وافقه فيه أن تكون متناسبة المخارج حتى يسهل على اللسان النطق بها وإن  
اختلفا في معنى هذا التناسب فقد حدده ابن سنان بالتقارب جداً أو التباعد جداً ،  
ورأى ابن الأثير أن لهذه القاعدة شواذ ، وأن القياس الذي لا يخطئ هو التمثل  
على اللسان في النطق . ومنها عدم القرابة أو الحوشية وعدم الابتذال ، وهذه العيوب  
إلى جانب تركيبها من حروف متنافرة لا تروق في السمع فتثقل على الأذن .

وينبغي أن تكون الألفاظ مألوفة سهلة ، تقع معانيها قريبة من أفهام الناس ،  
ولا تكون صعبة مستغلة . يقول : « وقد رأيت جماعة من مدعي هذه الصناعة  
يعتقدون أن الكلام الفصيح هو الذي يعز فهمه ويبعد مناله ، فإذا رأوا كلاماً  
وحشياً غامض الألفاظ يعجبون به ويصفونه بالفصاحة ، وهو بالضد من ذلك ،  
لأن الفصاحة الظهور والبيان لا الغموض والخفاء (١) » .

كذلك ينبغي للألفاظ أن تتفق مع أصواتها وتراكيبها ، فالألفاظ  
تنقسم في الاستعمال إلى جزلة ورفيقة ، وأكل منها موضع يحسن استعماله فيه  
فالجزل منها في مواقف الحروب ، وفي القوارع والتهديد ، والتخويف وأشباه ذلك .  
ولست أعنى بالجزل من الألفاظ أن يكون وحشياً متوعراً عليه عنجبية البداوة ،  
بل أعنى بالجزل أن يكون متيناً على عدوبته في الفم ، ولذاته في السمع ، ولست أعنى  
بالرقيق أن يكون ركيكاً سفاسفاً ، وإنما هو اللطيف الرقيق الحاشية . الناعم  
الملمس (٢) .

ويرى أن بعض الألفاظ تحتفظ في بعض أبيات الشعر أو جمل الشعر  
بخصائص معينة فتحيط نفسها بهالة من المعاني والظلال الجانية والإيحاءات  
المختلفة فوق مدلولها المباشر ، أو معناها اللغوي . وتبدو براعة الأديب في القدرة على

(١) الملل السائر ١/٦٨ .

(٢) الملل السائر ١/١٦٣ .

استغلال هذه الخصائص في الألفاظ كما فعل الشاعر في استغلال لفظي  
« كل حاجة » في قوله :

ولا قضينا من منى كل حاجة ومسح بالأركان من هو مسح  
قال ضياء الدين : « إن في قول هذا الشاعر كل حاجة » ما يستفيد منه أهل  
النسيب والرقعة والأهواء والمقة ما لا يستفيدة غيرهم ، ولا يشاركهم فيه من ليس منهم ،  
ألا ترى أن حوائج منى أشياء كثيرة ، فمنها التلاقي ، ومنها التشاكي ومنها التحلى  
للإجتماع . . . إلى غير ذلك مما هو نال له ومعقود الكون به (١) .

وقد يسمى تلك الألفاظ « جوامع الكلم » ويعنى تلك التى تتضمن من المعنى  
مالا تتضمنه أخواتها مما يجوز استعماله في مكانها مثل قول النبي -ص- : « بُعِثْتُ  
فِي نَفْسِ السَّاعَةِ . » وقد أعجب بمثل هذه الألفاظ حتى قال : « وكنت إذا مررت  
بنظري في ديوان من اللواوين يلوح لي فيه مثل هذه الألفاظ فأجد لها نشوة كنشوة  
الحمر وطرباً كطرب الألمان » .

وأما آراؤه في تأليف لعبارة ، فهو يرى أن الترتيب المنطقي حسب قواعد  
اللغة ليس الترتيب الأمثل في التعبير الأدبي ، وإنما المقياس فيه الذوق والإحساس  
الصادق بقوة المعنى وقوة التعبير عنه لا سلامته ، فالسلامة العقابية التى تتوخاها  
قواعد اللغة ، ويتوخاها المنطق لا اعتبار لما وحدها في ميزان النقد والبلاغة « فأسرار  
الفصاحة لا تؤخذ من علماء العربية ، وإنما تؤخذ منهم مسألة نحوية » .

ومما ضربه للجائز لغة ، القبيح بلاغة لفظة الفقود في بيت عنتره :

فإن يبباً فدم أنفم عليه وإن يفقد فحق له الفؤود

فقوله الفقود جمع مصدر من قولنا فقد فقداً . واستعمال هذه اللفظة غير  
سائغ ولا لذيذ، وإن كان جائزاً، ونحن في استعمال ما استعمله من الألفاظ واقفون  
مع الحسن لا مع الجواز ، وهذا كله يرجع إلى حاكم الذوق السليم ، فإن صاحب

هذه الصناعة بصرف الألفاظ بضروب التصريف ، فاعذب في فهمها استعماله ، وما لفظه فه تركه .

وتختلف عنده العبارة الأدبية أو الفنية عن العبارة العامية أو المنطقية في أن الثانية تقصد إلى المعنى مباشرة دون زيادة أو نقص ، بخلاف الأولى التي تحتمل أشياء كثيرة وقد يمتدحها حاول اللغويون والمناطقية وبعض النقاد قياس الشعر بالمنطق ومقاييسه وحدوده فثار عليهم البحري :

كلفتمونا حدود منطقتكم والشعر يغني عن صدقه كذبه

يعني أن المنطق يبحث عن الصدق أي مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، وأما الشعر فيحتمل كثيراً من المجاز والتأويل .

ولذا استخدم الأدب الأسلوب المجازي بفضونه التعبيرية المختلفة من إيجاز وإطناب ومجاز واستعارة وتشبيه وكناية وتورية ومبالغة وتقديم وتأخير وما إلى ذلك .

وقد عمد إلى عدم الاكتفاء بمخاطبة العقل بل إلى ضرورة التأثير على المشاعر والأحاسيس وإثارة الانفعالات المختلفة عن طريق التخيل أو مخاطبة الحواس ، والإيهام . وذكر ضياء الدين أن دور المجاز في التعبير الأدبي هو « إثبات الغرض المقصود في نفس السامع بالتخيل والتصوير حتى يكاد ينظر إليه عياناً » .

وكلما قويت الصورة المجازية في ذهن السامع قويت دلالتها ، فالتشبيه المضمحل أبلغ من المظهر وأوجز ، أما كونه أبلغ فلجعل المشبه مشبهاً به من غير واسطة أو أداة فيكون هو إياه ، فإنك إذا قلت : زيد أسد كنت قد جعلته أسداً من غير إظهار أداة التشبيه . . . وأن الغرض المقصود من قولنا زيد أسد أن نتبين حال زيد في اتصافه بشهامة النفس وقوة البطش ، وجراءة الإقدام ، وغير ذلك مما يجري مجراه ، إلا أننا لم نجد شيئاً يدل به عليه سوى أن جعلناه شبيهاً بالأسد حيث كانت هذه الصفات مخصصة به ، فصار ما قصدناه من هذا القول أكشفاً وأبين من أن لو قلنا : زيد شهيم شجاع ، قوى البطش جرى الجنان وأشباه ذلك .

لما قد عرف من اجتماع هذه الصفات في المشبه به أعنى الأسد ، وأما زيد الذى هو المشبه فليس معروفاً أنها كانت موجودة فيه <sup>(١)</sup> .

والتصوير في التعبير الأدبي ضرب من المحاكاة ، وهو عنصر أساسى في كل الفنون ، فالفن في أساسه محاكاة للطبيعة ، ولكنها محاكاة تتلون بلون الفنان وموضوعه ويستخدم الفنان المحاكاة للتعبير عن تجربة أو قضية فنية أو اجتماعية أو ذهنية أو تجربة ذاتية ، فإذا خلت المحاكاة أو الصورة الأدبية من هذه المضامين قلت قيمتها الفنية لدى بعض النقاد ومنهم ضياء الدين بن الأثير ، فهو لا يكتفى من الشاعر مثلاً بأن يصور ما يرى تصويراً مجسماً أو دقيقاً فينقله إلى السامع بحيث يتصوره وكأنه يراه ويلمسه بيده . كما فعل أبو نواس في وصفه لكأس الخمر :

تُدارُ علينا الرَّاحُ في عَسْجَدِيَّةٍ حَبَّتْهَا بِأَنْوَاعِ التَّصَاوِيرِ فَارُسُ  
قَرَارُهَا كَسْرَى وَفِي جَنْبَاتِهَا مَهْمًا تَدْرِيبًا بِالْقِمِيِّ الْفَوَارِسِ  
فَلِلرَّاحِ مَا زَرَّتْ عَلَيْهِ جِيوبُهَا وَلِلْمَاءِ مَا دَارَتْ عَلَيْهِ الْقَلَائِسُ

فهو مجرد حكاية حال مشاهدة بالبصر . والمعنى أو الصورة المخترعة على غير مثال أبدع عنده وأجمل . « المعانى التى تستخرج من غير شاهد حال متصورة فإنها أصعب مثلاً مما يستخرج بشاهد الحال ، ولأمر ما كان لإبكارها سر لا يهجم على مكانه إلا جتان شهم ، ولا يفوز بمحاسنه إلا من دق فهمه حتى جل عن دقة الفهم » .

ومع ذلك فلا يصح أن يجتلب الأديب الصور من حيث وليس فتكون غريبة غير مألوفاً ، أو يركب بعضها إلى بعض بحيث لا تقبل عقلاً ولا تتصور في الواقع . وإنما عليه أن يلائم ما استطاع ويوفق بين ما تقع عليه الحواس وبين ما يخترعه فيأتى بالجليد وكأنه واقع مشاهد وهو على مثال معروف أو ممكن غير مستبعد . ويوازن ضياء الدين بين بيتين من الشعر أحدهما محاكاة أو صورة ، والآخر

(١) المثل السائر ١/٢٩٣ .

تجربة أو شعر له غاية غير مجرد التعبير عن صورة . فيفضل الثاني عن الأول  
 وذكر قول امرئ القيس يصف عشَّ انعقاب وما به من بقايا صيدها من الطير :

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابِسًا      لَدَى وَكْرِهِا العُنَابُ والحشْفُ البَالِي  
 وقول النابغة يصف تجربته مع الأصدقاء :

ولست بِمُسْتَبَقِي أَخَا لَا تَلْمُهُ      على شَعَثِ أَيُّ الرَّجَالِ المَهْدَبُ  
 قال ضياء الدين : « قالوا هذان البيتان لا يمكن المفاضلة بينهما لأنهما اشتملا  
 على معنيين مختلفين ، فهذا حسن في بابه ، وهذا حسن في بابه ، وأما أن يقال  
 هذا أفضل من هذا فلا لأن التفاضل إنما يظهر بالاشتراك في صفة واحدة وهذا  
 المذهب عندى فاسد . والمذهب الصحيح الذي يثبت على محك النظر أن المفاضلة  
 تقع بين الكلامين سواء كانا متفقين في المعنى أو مختلفين » .

ويرى أن هذين البيتين قد اختلفا في المعنى « ومعداة الحكم تقضى بأن بيت  
 النابغة أفضل ، لأننا إذا نظرنا إلى لفظيهما ومعنييهما وجدناهما من جهة اللفظ  
 سواء . . . . وأما من جهة المعنى فإن بيت النابغة أفضل وذلك لأنه تضمن حكمة  
 تعرف عن تجربة الإخوان فيتأدب بها الغرّ الجاهل ويتنبه لما الفطن الأريب ،  
 والناس أحوج إلى معرفته من معرفة التشبيه الذي تضمنه بيت امرئ القيس ، وغاية  
 ما فيه أنه رأى صورة فحكاهما في المائلة بينها وبين صورة أخرى ، وليس ثم سوى  
 ذلك . وبيت النابغة حكمة مؤدبة تستخرج بالفكر الدقيق (١) » .

ولسنا مع ابن الأثير في رأيه . فالتصوير هنا بحوى مضموناً جمالياً ، فهو  
 بدلٌ أو يرحى من وراء هذه الصورة المحكية بقوة العتاب وشراستها في الإغارة على  
 صغار الطير وإفتراسها . وليست المعاني المفصلة أو المقدمة دائماً هي المعاني الأخلاقية  
 كما في بيت النابغة المفيدة للناس والمجتمع . كما أنه لا ارتباط عند كثير من علماء  
 الجمال بين الحقيقة الأخلاقية أو الدينية والحقيقة الجمالية وإن كان بعض من

يرى التلازم بينهما من النقاد يذهب إلى ضرورة أن يستهدف الأدب النفع للحياة والناس .

وصاحبنا ضياء الدين فيما ذهب إليه يرى تنفع الأدب للحياة كما كان كثير من علماء العرب . وخاصة ابن قتيبة .

وليس معنى ذلك أن ضياء الدين ابتعد عن قياس الأدب بمقياس الجمال واللذة أو بمقياس الذوق ، والحق أن المنفعة واللذة كانتا دعائمي مقياس ضياء الدين في النقد والبلاغة .

ففي مجال اللفظ اهتم بما كان له وقع حسن يلد للسمع ، وقد تكون لذة السرور أو نشوة البهجة أو لذة الألم . كما ينبغي أن لا تكون مما يقبح أخلاقياً أو مما ابتذله العامة في معان قبيحة .

وكثيراً ما تراه يحكم على الشعر بأنه يثير النشوة فيقول مثلاً : « وكنت إذا مررت بنظري في ديوان من الدواوين ، ويأوح لي فيه مثل هذه الألفاظ أجد لها نشوة كشوة الخمر ، وطرباً كطرب الألحان<sup>(١)</sup> » .

ويفصف وقع الشعر في النفوس وقعاً مطرباً فيقول في أبيات الشاعر :

بأبي غزالٍ غازَلْتُهُ مُقَاتِي      بَيْنَ الْغُؤَيْرِ وَبَيْنَ سَطَى بَارِقِ  
عَاطِيَتُهُ وَاللَّيْلِ يَسْحَبُ ذَيْلَهُ      صَهْبَاءَ كَالْمِسْكِ الْفَتِيْقِ النَّاشِقِ  
وَضَمَمْتُهُ ضَمَّ الْكَمِيِّ لِسَيْفِهِ      وَذَوَّابَتْأَهُ حَمَائِلُ فِي عَاتِقِي  
حَتَّى إِذَا مَالَتْ بِهِ سِنَّةُ الْكُرَى      زَحَزَحْتُهُ شَيْئاً وَكَانَ مَعَا نِقِي  
أَبْعَدْتُهُ عَنِ أَضْلُعِ تَشْتَاقِهِ      كَيْ لَا يَنَامَ عَلَيَّ وَسَادِ خَافِقِي

« وهذا من الحسن والملاحة بالمكان الأقصى ، ولقد خفت معانيه على القلوب

حتى كادت ترقص رقصاً ، والبيت الأخير هو الموصوف بالإبداع ، وبه وبأمثاله أقرت الأبصار بفضل الأسماع<sup>(٢)</sup> » .

موقفه بين النثر والشعر :

ومع أن ضياء الدين قد ألف كتابه في أصول الصناعتين « الكتابة والنظم » إلا أنه انتصر للكتابة ، وعلل تفضيله للكتابة بعدة أسباب ردها قبله بعض المنتصرين للكاتب على الشعراء . منها أن القرآن نص نثري ، وأن الإعجاز متصل بالنثر ، وأن الكتابة أصعب طريقاً ، وأن الكاتب أحد دعائم الدولة ، فكل دولة تقوم على السيف والقلم « وربما لا يفتقر الملك في ملكه إلى السيف إلا مرة أو مرتين أما القلم فإنه يفتقر إليه على الأيام ، وكثيراً ما يستغنى به عن السيف . ويلخص قول الصابي في ذلك إذ يقول إن طريق الإحسان في المنظوم يخالف طريقه في المنشور معللاً ذلك بأن الترسيل « هو ما أعطاك سماعه في أول وهلة ما تضمنته ألفاظه وأفخر الشعر ما غمض فلم يعطك غرضه إلا بعد ملاحظة » .

وأن الشعر بنى على حدود مقررة وأوزان مقدرة ، وفصلت آياته فكان كل بيت منها قائماً بذاته ، وغير محتاج إلى غيره إلا ما جاء على وجه التضمين وهو عيب ، فلما كان النفس لا يمتد في البيت الواحد بأكثر من مقدار عروضه وضره به - وكلاهما قليل - احتيج إلى أن يكون الفضل في المعنى ، فاعتمد أن يلفظ ويدق ، والترسل مبنى على مخالفة هذه الطريق إذا كان كلاماً واحداً لا يتجزأ .

هذا خلاصة كلام الصولي كما رواه ابن الأثير ، وقد اعترض عليه في مواضع وانتقد مسألة الغموض في الشعر ، قائلاً إن الأحسن في الفنين إنما هو الوضوح والبيان . كذلك رأى أن القول بأن سبب عمد الشعر إلى التركيز المؤدى إلى الغموض أحياناً مراعاة للبيت الواحد في عروضه وقافيته هذا القول فاسد . كذلك فإن موضوعات الشعر والنثر متقاربة بل هما يشتركان في كثير منها : « وأى فرق بين الشاعر والكاتب في هذا المقام ؟ فكما يصف الشاعر الديار والآثار ، ويحج إلى الأهواء والأوطان ، فكذلك يكتب الكاتب في الاشتياق إلى الأوطان ومنازل الأحباب والإخوان» (١) .

وبذلك لا يرى فيما ذكره الصابى فروقاً حقيقية بين الكتابة والشعر ، ويتلخص الفرق بينهما عنده في ثلاثة أمور هي : النظم ، وجواز استخدام بعض الألفاظ في الشعر وعدم جوازها في النثر ، أى أن للشعر لغة خاصة أو ما يمكن أن يعد لغة أو مستوى لغويّاً خاصاً به ، والثالث تفاوت عرض الشاعر لموضوعه بين الجودة والرداءة أو الارتفاع والهبوط لضيق مجال الوزن والقافية بعكس الكاتب الذى يستوى نفسه في الرسالة في كل أجزائها .

ويعرض ضياء الدين لمقارنة طريقة بين الشعر العربى والشعر الفارسى فيقول « وعلى هذا فإنى وجدت العجم يفضلون العرب في هذه الناحية المشار إليها ، أى التقييد بالوزن والقافية — فإن شاعرهم يذكر كتاباً مصنفاً من أوله إلى آخره شعراً وهو شرح قصص وأحوال ، ويكون مع ذلك في غاية الفصاحة والبلاغة في لغة القوم كما فعل الفردوسى في نظم الكتاب المعروف بشاهنامه ، وهو ستون ألف بيت من الشعر يشتمل على تاريخ الفرس ، وهو قرآن القوم ، وقد أجمع فصحاؤهم على أنه ليس في لغتهم أفصح منه ، وهذا لا يوجد في اللغة الفرية على اتساعها وتشعب فنونها وأغراضها ، وعلى أن لغة العجم بالنسبة إليها كقطرة من بحر » .

موقفه من الكتاب والشعراء :

وتعرض ضياء الدين في كتابيه « المثل السائر » و « الاستدراك » لنقد بعض الكتاب والشعراء ، وأكثر من تعرض لهم من سابقيه أبو هلال الصابى ؛ فلم تعجبه طريقته في الكتابة ، وخاصة في تكرار معاني عباراته وتناسب فقراته ، ويعرض حملة من رسائل الصابى ورسائله الخاصة ثم يعقب عليها بقوله : « وكلام الصابى في هذه التقاليد الأربعة لم أقصد به الوضع من الرجل وإنما ذكرت ما ذكرته لبيان موضع السجع الذى يثبت على المحك ، ولا شك أن هذا الوصف المشار إليه في فقر الأسجاع لم يكن مقصوداً في الزمن القديم إما لمكان عزه أو أنه لم ينتبه له . وكيف أضع من الصابى وعلم الكتابة قد رفعه وهو إمام هذا الفن والواحد فيه .

ولقد اعتبرت مكاتباته فوجدته قد أجاد في السلطانيات كل الإجابة وأحسن كل الإحسان ، ولو لم يكن له غير كتابه الذى كتبه عن عز الدولة بختيار بن بويه إلى سبكتكين عند خروجه عليه وبجهرته إياه بالعصيان لا استحق به فضيلة التقدم ، كيف وله من السلطانيات ما أتى فيه بكل عجيبة ، لكنه في الإخوانيات مقصّر ، وكذلك في كتب التعازى ، وعندى فيه رأى لم يره أحدٌ غيرى ، ولى فيه قول لم يقله أحد سواى ، وذلك أن عقل الرجل فى كتابته زائد على فصاحته وبلاغته . . . » ثم يجمل القارئ على ما أورده من رسائله منبهاً إلى ما فيها من وصايا وشروط واستدراكات وأوامر ما بين أصل وفرع وكل وجزء ، وقليل وكثير . يقول : « ولا نرى ذلك فى كلام غيره من الكتاب إلا أنه عبر عن تلك الوصايا والأوامر والشروط والاستدراكات بعبارات فى بعضها ما فيه من الضعف والركة . وقد قيل إن زيادة العلم على المنطق هجنة ، وزيادة المنطق على العلم خدعة . ومع هذا فى أقر للرجل بالتقدم ، وأشهد له بالفضل . »

ويتعرض من حين لآخر للقاضى الفاضل ويحاول غمزه والإقلال من شأن كتابته ، وقد أخذ عليه مرة التخصير فى موضوع رسائله ومرة أخرى عدم مناسبتها للمقام ، ومرة ثالثة المبالغة وعدم التناسب فى الصور البيانية بين تشبيه واستعارة ولكن موقفه من القاضى الفاضل مشوب بالهوى إلى حد كبير لما كان بينهما من تعاصر ولتقدم الفاضل عليه ووقفه مع العادل والعزيز عثمان ضده .

أما عن موقفه من الشعراء فقد ذكرنا أنه أعجب بأبى تمام والمتنبى لأنهما جمعا بين الفن والعقل ، أو بين الصنعة والطبع ، وثالث من يعجب بهم من الشعراء البحرى ويعرض لبعض المحدثين فيعجب بهم أحياناً ويؤاخذهم على بعض ما سقطوا فيه أحياناً .

ولا يتعصب كغيره من العلماء وأكثر النقاد للقدماء لتقدمهم ، بل يحكم على الشعر سواء القديم أو المحدث بما له أو عليه ، وإن كان أكثر ميلاً إلى معانى المحدثين وجمال صنعتهم .